

في الأدب الفرنسي

٦- الدوق دي لاروشفوكو

للدكتور حسن صادق

فلسفة :

لما عجز لاروشفوكو عن تحقيق آماله وبتس من ارضاء طموحه، صدف عن حياة الاجتماع الصاخبة، وانطوى على نفسه وحالها، واستعرض في ذهنه حوادث الماضي وأخلاق الناس الذين عاشرهم ولا حظهم، ثم طلع عليهم بمواعظه القاسية الأليمة التي تظهر عواطفهم في صورة دميعة، وتجمل لجميع أعمالهم مصدراً واحداً هو الأثرة. وليس عجيباً أن يقسو هذا الرجل في الحكم على نفسه وعلى الناس، وأن يقوده التفكير الى فلسفته اللاذعة، لأن التحليل لا يشجع التسامح، والغلو في الشك يؤدي الى حب النفس. وأعتقد أن آراءه في معاصريه وبتسه، تنطبق على الانسان في كل زمان، مع أن المصور الذي يرسم البحر أثناء العاصفة فقط، لا يعطينا عنه إلا فكرة ناقصة الى حد بعيد. ولكي يكون الحكم على الجماعة صحيحاً، يجب ملاحظتها ودرسها في حالتها المدو والشفب، ولكن لاروشفوكو رأى الناس في عصره يعملون مدفوعين بمصلحتهم الذاتية، كما هو الحال دائماً أثناء الاضطراب الداخلي والحروب الأهلية، فاستخلص من ذلك أن المصلحة الذاتية التي يسميها غربة النفس أو الأثرة هي الباعث على جميع الأعمال الانسانية، وينبوع المواقف البشرية. ولا شك في أن الانسان

ألوانه، وتلاشت أطيافه، وهكذا نرى الفلسفة والشعر على طرفي نقيض.

تلك هي حلاصة آراء ما كولي في العلاقة بين الشعر والمدينة وبين الشعر والفلسفة. ولعل أعرض على القاري في القريب رأيه في شاعرية ملان، فقد تعرض في ذلك إلى كثير من الأفكار التي تدور حول الشعر ولقته ومحسناته ومزاجيه ما

محمود الحفيف

مع قدرته على تحليل الشخصيات الى عناصرها أن يضم من هذه العناصر ما يريد ليخرج لنا في النهاية رجلاً مثل «اياجو» له خلق خاص وطبيعة خاصة وسلوك خاص؟

ولا يكتفى ما كولي بهذه البراهين التي ساقها للفرقة بين الشعر والفلسفة، بل انه ليخطر الى أبعد من ذلك فيقول انه ربما كان من المستحيل على أي امرئ أن يكون شاعراً لا ولا أن يفهم الشعر ما لم يتجرد بعض الشيء من حدة عقله، أو ببارة أخرى ما لم يكن له نصيب من خمود الذهن، اذاصح هذا التعبير وجاز لنا أن نسمي تلك القوة العجيبة التي تملأ قلوبنا بهجة خموداً ذهنياً. نعم ان الصدق في الشعر أمر جوهري ولكنه « صدق الجنون » ذلك لأننا في الشعر نقيم الجدل الصحيح على القدمات الزائفة، فبعد أن نضع الفروض الأولى، يسير كل ما بعدها في توافق واتزان، ولكن قبول تلك الفروض يحتاج الى نوع من التصديق قد لا يتيسر لنا إلا اذا ألقينا عقولنا مؤثمة، ومن ثم كان الأطفال أكثر الناس خيالاً، فانهم يستسلمون الى الوهم، فاذا حارست أية صورة خيالية أمام أذهانهم عرضاً قوياً فانها تفعل بنفوسهم ما تفعله الحقيقة. وليس ثمة من رجل معها بلغت قوة احساسه بتأثر بقراءة « هملت » أو « لير » كما تتأثر فتاة صغيرة بقصة الذئب والجدة المعجوز، ان تلك الفتاة تعلم حق العلم أنه ما من ذئب في انجلترا، وأن الذئاب لا تتكلم، ولكنها على الرغم من يقينها هذا تصدق فتبكي فترتمد، وذلك هو سلطان الخيال على العقول التي لم يصقلها العلم أو على الأم في عهد طفولتها.

ولن يترك ما كولي أدلته دون أن يتوجها بتشبيه بديع، فهو يشبه الشعر بالفانوس السحري؛ فالشعر يرسم أطيافه في غيلة ليل، أو كما يسميها ما كولي « عين العقل » كما يرسم الفانوس السحري صورته فتمتلئ بها العين الحقيقية « عين الجسم » وكما أن الفانوس السحري لا يؤدي عمله على الوجه الأكمل إلا في الحجرات المظلمة، فكذلك الشعر لا يؤثر تأثيره القوي إلا في المصور المظلمة، عصور العقول الساذجة القطرية التي لم تغيرها الفلسفة والعلوم. وكلما انتشر نور العلم وتمكنت العقول من استنباط الأصول وتقرير القواعد وكشف النقاب عن حقائق الحياة، تضائل تبعاً لذلك عمل الخيال وترايل تأثير الشعر، وحالت

الانجليزى الذى يرد بعض المواطنين الهامة مثل الشفقة وحب البر والاحسان الى مصدر واحد هو الصلحة الذاتية . ولكن الحكم الفرنسى توغل أكثر منه فى النفس الانسانية . وقليل من علماء النفس مثلوه فى دقة التحليل ، ولم يصل أحد منهم بمثل مهارته الى هذا الجزء الخفى من النفس الذى تكمن فيه بعض الأفكار الأنانية المميقة . هذه الأفكار المبهمة ينفذ اليها لاروشفوكو بقله ويخرجها الى النور دون أن تستطيع الافلات منه

ويرى هوبز أن فى الحياة لذين رئيسيتين : لذة البدن وهى الاستمتاع ، ولذة النفس وهى الفرور ، ويفضل الأولى على الثانية . أما لاروشفوكو فيعتقد أن اللذة النفسية هى الجديرة بالتفضيل على غيرها . ويقول « أكبر مسرات النفس فى اعتقادى هى المجد الصحيح والمعارف الجميلة . وأؤمن بأن الذين يعملون للذة الجسدية قيمة كبرى لا يعملون من هذه للمعارف إلا قليلا . وأرى أن اللذة الحسية خشنة مبتذلة تلهم الاشتزاز ، ولا تستحق البحث عنها والسعى وراءها إلا اذا كان للذة النفسية نصيب كبير فيها

ولم يقل ذلك الا بعد أن مل العيش وكلف بالقراءة والتفكير العميق . وهو هوبز يتفقان على أيقور على أن الأعمال الانسانية ليست تقي من الرض . وقد اتبعا طريقتين مختلفتين فى الوصول الى آرائهما ، ولكنهما التقيا فى نقطة واحدة . أما هوبز فقد استعمل طريقة الاستنباط (أى استخراج قضية من قضية أعم منها) والتعقل . وأما لاروشفوكو فقد اتبع طريقة الاستقراء (أى الانتقال من الخاص الى العام) والملاحظة . وكلاهما اتبع منيلا واحدة فى اتجاهين متضادين ، ونجحا فى قطعها الى آخرها كل فى اتجاهه

لما كف لاروشفوكو عن حياة الخيال والدسيسة والشغب ، بدأ حياة الفكر وتسلل بقله الى أبعد أغوار نفسه ، ولاحظ فى دقة نادرة نفوس أهل عصره . ثم وجد أنه أينما ولى بصره لا يرى

النظام والحفاظة عليه ، وإخضاع الأفراد لقانون أو على الأرجح لارادة فرد واحد ، وعلى هذه الارادة يتوقف الخير والشر . ولا يجد هوبز أى فرق بين القانون والارادة الاستبدادية ، أى لا يجد فرقا بين القوة والحق . وكل سلطة فى اعتقاده مشروعية مادامت كاتبة وفى استطاعتها الحفاظة على كتابها . أما رأيه فى السكينة فهو وجوب خضوعها للدولة خضوعاً تاماً .

يعمل دائماً طوعاً لمبدأ فى دخيلته يدفعه الى البحث عن مصلحته الذاتية وسعادته . ولكن يغاب على هذا الفيلسوف أنه يضع لجميع الأعمال والمواطنين على اختلاف أنواعها تفسيراً واحداً ، على حين أن الطبيعة قد منحت الناس مواهب خاصة وغيائر متعددة وأذواقاً متباينة وملكات مختلفة تسبق الفكر فى كثير من الأوقات والحالات الى الحركة والعمل ، وجعلت لكل فرد طريقة يتبناها فى الوصول الى هدفه من الدنيا . وفى الحياة كثير من الناس يرتون عن أصولهم السناجحة الكريمة وصفاء القلب الجميل ، فليس لهم مبتغى ولا متمنى غير إسداء المعروف الى اخوانهم فى الحاجة مخلصين . وهم يلاقون فى سبيل ذلك عناء كبيراً ويصادفون أخطارا جمة ويقدمون على تضحية كثيرة يستمدون بها . وطريقتهم فى الحياة هذه عزيزة عليهم ، يجدون فيها مثلهم الأعلى فى الشرف والسعادة . وليس من الحق والانصاف أن يسمى الباعث على أعمالهم أثره بالمعنى الذى يقصد اليه لاروشفوكو ويفهم عادة من هذه الكلمة وهذا الفيلسوف أيقورى كعاصره (هوبز) (١)

(١) توماس هوبز ١٥٨٨ — ١٦٧٩ فيلسوف انجليزى نابه الذكر بيد الصورت . تعلم فى أكسفورد ثم قام بتدريس الفلسفة لأحد أفراد أسرة كاتنديش المرموقة النسب . ووزلر فرنسا فقامت بينه وبين ديكارت وجاسنادى أوامر المودة . ثم زار ايطاليا وعرف فيها الى جاليليو . واشترك فى حركة بلاده السياسية ، وكان شديد التعصب للحكم المطلق . وقضى أعوامه الأخيرة فى الرف متشغلاً بالأدب والفلسفة ، وكتب تاريخ حياته شعراً . وفى شبابه كان مولماً بفلسفة أرسطو ، ثم صدف عنها ، ومال بإرشاد (باكسون) الفيلسوف الانجليزى المشهور الى الفلسفة التجريبية ، ثم الى الفلسفة المادية التى كانت السبب فى ربه بالاحاد . وله كتب كثيرة فلسفية ذهب له بها صيت وذكر . وقد تأثر بفلسفة ديكارت الرياضية وقال إن كل جوهر جسم وإن كل ظاهرة مصدرها الحركة . وفلسفته هى للمادة فى النظريات والنقطة فى الأخلاق ، والاستبداد المطلق فى السياسة . وهو حتى كما يكون يعتقد أن الحواس هى مصدر جميع المعارف البشيرية . ويرى أن أسباب العمل اثنان ليس غير : البحث عن اللذة والمهرب من الألم . ويعتقد أن الفلسفة بأكلها تتجمع فى دراسة الأجسام ، إذ ليس فى الطبيعة إلا حركة وامتداد . فالفلسفة هى دراسة الأجسام الطبيعية ، والأجسام الصناعية . ودراسة الجسم الانسانى تتطلب المنطق ، وعلم السكائنات ، وعلم الأخلاق ، وقوامه المصلحة الذاتية : وينبئ الأجسام الصناعية وهى الجماعات السياسية بالجسم الانسانى . ومنعجه النفسى الأثر جملة بقر وجود « حالة بدواة » سابقة على حالة الاجتماع . وكل فرد فى تلك الحالة كان له الحق فى كل شئ . وينتج من ذلك أن الناس كانوا فى حرب دائماً لتعدد مصالحهم الثانية وتباينها . ثم أدركوا أن السلام أعظم خير لأنه يمكنهم من الاستمتاع بما يشتهون فى دعة وهدوء ، فنعوا بمقد جميع الحقوق رجلاً واحداً ، أى أنشأوا سلطة اشترطوا فيها القدرة على إقامة

على الأقل على أن مصدرها الفرور والكسل والخوف ليس غير ، مع أنها قد تصدر عن الشفقة وهي عاطفة عامة ، أو عن الطيبة الكريمة التي تشعربها النفوس المالية الكبيرة . ولنضرب مثلاً : يوليوس قيصر الذي انتصر على بومبيوس في موقعة فارسال (من أعمال اليونان الآن) في عام ٤٨ قبل الميلاد ، وأسر كثيراً من عظماء عدوه ، فإنه عفا عنهم وكان في استطاعته قتلهم جميعاً . فهل يقول العقل إن هذا العفو مصدره الفرور ، والفرور هو الكبرياء الذي تنشئه في النفس الأعمال التافهة الهزيلة ، وانتصار قيصر على عدوه ليس من الأعمال التافهة ، أو يقول إنه صدر عن كسل وهو في مقدوره أن يأمر بالقتل فيطاع ، أو يقول إنه صدر عن خوف وهو متمصر قوى ؟ ولكن لاروشفوكو لا يجد في الإنسان طيبة نقية ، وبحرم علينا أن نؤمن بوجودها ، وهو يهر النظر بالضوء الذي يلقيه على رذائل الإنسانية ، ويلقي بالفضيلة في ظلمة تحجبها عن الأبصار .

ولاشك في أن الرذيلة هي التي تسبب شقاء الناس ، وأن الفضيلة تهبي لهم أسباب السعادة . فكل فكرة ترمي إلى هدم الفضيلة لتقيم على أنقاضها رذيلة ، هي فكرة قاضية على سعادة البشر . والفكرة التي تقضى على سعادة البشر لا يمكن أن تشمل على حقيقة ، لأن صفة الحقيقة وعملها أن تسمو بالنفس لا أن تنفسها ، وأن تشع الحياة في الجماعات الإنسانية لا أن تدمرها ، وأن ترهب الطغاة لا أن تشجعهم . وقد سبق القول إن هذا الفيلسوف صور نفسه وعصره ومواعظه . ورأيه في الرحمة يدلنا على ذلك أفصح دلالة ، لأنه ينطبق على سياسة الملكة آن دوريش . فإن هذه الملكة بعد أن ضحى لاروشفوكو في سبيلها كثيراً وشاكس ريشليو ورفض ما عرضة عليه من الرتب لإرضاء لها ، لم تحسن إليه بعد أن أقيمت وصية على العرش ، بل أحسنت إلى الذين كانت تحقد عليهم . وهؤلاء كانوا أتباع ريشليو ، فلما مات هذا الوزير وخلفه في الحكم صنيعة مازاران ، بسط عليهم جناح حمايته كسلفه ، فلم تجرد الملكة بدأ من مداراتهم بالرحمة التي ألهمت لاروشفوكو موعظته .

فهمه صادره

يتبع

غير التفاق ، يطل عليه الفرور ، ويمكن خلفهما الأثرة . ودلته التجربة على أن هذه الأثرة كما دقت واستخفت على الملاحظة ، كانت قوية حادة ، لأنه يجعل مقياسها مبلغ الشقة التي يعانيها الإنسان في استكشافها .

ومن ملاحظاته التفصيلية الخاصة ، استخلص فكرته العامة عن الإنسان ، وهي تلخص في أن المصلحة الذاتية تقوده في كل موطن ، وحب النفس يدفعه إلى كل عمل . وصاغ هذه الفكرة العامة في تمييز دقيق : « تتلشى الفضائل في المصلحة الذاتية كما تتلشى الأنهار في البحر » (موعظة رقم ١٧١) . ولكي يكسبها الوضوح والجلال رجع إلى ملاحظاته التفصيلية واختبرها ليثبت أن كل واحدة منها تدخل في حكمه العام . وهذا يدل على أن لاروشفوكو له أسلوب (مجموع القدمات الصحيحة للموجزة الموصلة للحقائق) أو طريقة منظمة متناسقة متصلة الحلقات ، ومن يلق على موعظه نظرة سطحية يراها مفككة الأجزاء مبثرة ، ويمتقد أنها ملاحظات بسيطة دونها صاحبها مصادفة تبعاً للظروف دون أن يكثر لها من سيكون لها من القيمة أو لما ستنتج من الأثر . ولكن القارئ الذي يعمق في التفكير يجدها متصلة بأقوى إيمان بالأثرة العامة الشاملة ، وأشد ثباتاً وعناداً .

وهذه الطريقة تلخص فيما يلي : الأهواء مصدر أعمالنا وأحكامنا وعواطفنا ، وكل فضيلة تنفي في الأهواء التي يجاورها ، كل فضيلة تقرب غاية القرب من رذيلة وتخرج بها في ميدان العمل ، ولنا نطلق عليها اسم فضيلة بدلاً من الرذيلة المجاورة خطأ أو لإرضاء لكرامة غرورنا أو كبريائنا : « إن ما نصد فضائل ، ليس في أغلب الأحيان المجموعة من أعمال متعددة ، ومصالح متنوعة يرتبها الحظ أو صناعتنا » (موعظة رقم ١) . فالرحمة — مثلاً — التي نؤمن بوجودها يقول عنها : « الرحمة التي يحسبها الإنسان فضيلة ، تستعمل أحياناً بدافع الفرور وأحياناً بدافع الكسل ، وفي أغلب الأحيان بدافع الخوف ، ودائماً بدافع هذه الصفات الثلاث مجتمعة » (موعظة رقم ١٦) . ونرى من قوله أن كل عمل من أعمال الرحمة يتلشى في إحدى الرذائل المجاورة أو يتلشى فيها مجتمعة ، كما يتلشى النهر في البحر . وهذه الجملة « التي يحسبها الإنسان فضيلة » تدل على أن الرحمة ليست في ذاتها فضيلة ، أو